نـافـذة

ينبغي ويجوز

نتوقف معها، ونضيف عليها «يجب»، حيث ترسم المفردات معالم العديد من القضايا الجوهرية التي تنعكس مباشرة على الوطن والمواطن لحظة أن نبدأ بها بنود تشريع لقانون أو خطاب، أو أن نأمر أحداً ما بقوة أو بود أو بتواضع، وبينهما الرابطة التي تديرهما، وبشكل خاص السلطة التشريعية والتنفيذية، فهل نستطيع أن نناقش مخرجاتهما بشفافية وموضوعية؟ وكيف نقيم المنجزات بعد ربط أفكارنا بضمائرنا وتبنيد الأسئلة الواجب طرحها في زمننا المعيش؟ إضافة إلى ما يحيط به من أماكننا الحاضنة لنا بعد وضع المنجزات أمام المؤشرات العلمية، من أجل الوصول إلى الإنصاف الذي تؤسس لحضوره القواعد الحاكمة بعيداً من التشكيل الانطباعي المسكون بين العاطفي والشخصاني.

من السهل أن يسود الجدل المجوف المتعلق بالتنظير السفسطائي والتفلسف البعيد من قيمة الفلسفة التي تدرك أن الكلام سهل، والأفعال المنتجة والجيدة مركبة وصعبة، والانتقاد الفاقد للموضوعية غدا مباحاً، والوطن بما يحمله من مكونات أهمها الإنسان يحتاج إلى من يمنحه القوة والأمل والرجاء، ويرفض التلاعب بكلمات الحق التي يحتاجها، من خلال ما يتملكه من خوف علاجه، فيكون ذلك باستحضار أدوات الاستدراك التي تمنح الوسيط قيمة وقوة، وترخي عليه علوّ النفس وحسن الإدارة، فالانفعال يفتك بالنتائج، والهدوء يبحث عن المكونات ساعياً لتنظيمها ومن إصلاح تفاصيلها الآيلة للخراب أو المنتهكة بفعل الفردية وأناها الطبيعية أو الاصطناعية، التي توصل إلى اعتداء البشري على البشري بأشكال متعددة.

لماذا أتحدث هكذا؟ لأن المزاج الاجتماعي يميل إلى العزلة والانكفاء عن حركة التقدم، والأسباب عدم التوقف عن الإنتاج والهلع من الاتهام بالتحريض على التكفير والتخوين والاستباحة والتعنيف، والإرباك الهائل واقع في فكر المواطن، وفكر الإدارة والانتقادات متبادلة، فهل يكون كل هذا كلاماً بكلام؟ والواقع يتحدث عن ذاته بأنه غير جيد حتى اللحظة، والمطلوب تحديد نوع الانتظام، إضافة إلى قوانين عاقلة ومنصفة لطرفي المعادلة، وتوافر صدق النيات مع استقامة في المسير، ولولا الإخلاص للمبادئ فما أنجزته الأزمة من خراب مادي وفكري يستدعي تصويب كل شيء، فالوطن والمواطن بأمس الحاجة إلى الدولة وإنصافها لهما، فالدولة تطرح الارتقاء إلى الحاصل، ويجوز الفصل بين السلطات الثلاث، ويجب تحرير الفكر الديني من عقدة التقليدية ووقوفه على الأطلال، والمواطن يسأل: كيف وعمن أوصل الوطن إلى كومة من الأزمات وسبل علاجها؟ وهل يقدر على الإسهام في حلّها؟ وهو يريد أي المواطن أن يتدخل في السياسة التي لها أهلها، ولكن أين خبراء الاقتصاد؟ ومن المسؤول عن استيقاظ الدولة بعد ذاك التغييب الطويل؟ وفجأة تلهث خلف كل شيء، ويعود ليسأل: ما الفرق بين التسرع والتسريع الذي يجب أن يمتلك التخطيط الواقعي والإستراتيجي؟ وهل من أمة خلت من وجود نذير وبشير؟ فالصمت يسيء إلى البناء، والتمرّ تأخير وتخلف وتدمير.

المكر السيئ يحيق بأهله، والأوضاع بشكل عام ليست جيدةً، والوطن بحاجة لاستعادة جماله الذي يصنعه أبناؤه، فأين الذين يسهمون حقاً في صناعة الأمل المنطقي الواقعي لا الخيالي؟ أين الوطن اليوم من الأمس؟ وكيف سيكون في الغد بعيداً من لغة الأرقام التي تدلي بها الألسن، والتي لا تغني ولا تسمن، والخطب التي لم يعد يتوقف عندها أحد؟

هل الطبيعة العربية اختصت بتدمير بعضها؟ وهل ثقافتها الإسلامية قامت على اغتنام بعضها خفية وعلانية؟ من المسؤول عن بعث الروح الوطنية في الأجيال الخارجة من رحم الأزمات التي خاضت ومازالت تجارب مريرة وقاسية؟ أما آن الأوان لوضع حدود للتدهور الفكري والاجتماعي والاقتصادي؟ ومن المسؤول عن إعادة إنتاجه اليوم وفي الغد؟

الوطنيون من المفكرين والعلميين والشرفاء يعرفون ما لهم وما عليهم، يجب أن يظهر ويتجلى هذا في الظروف الاستثنائية، والكرامة الوطنية ترفض بشدة استباحة أرضنا ومياهنا وأجوائنا، وعلى عاتقهم يقع عدم تقبل أن نكون ضحايا الفكر المنغلق والإرهاب والعنف، وهنا نستخدم وجوب يجب تفعيل هذا في ذهن الأجيال، ومقاومة ذلك بكل القوى، وحقيقة لا يصح أن نطلق على ما وقع علينا وتغلغل بيننا فكراً، بل غزو أو همجية حملت أقسى أوجه البشاعة.

إذا في الظروف الاستثنائية تظهر عوامل الفساد وسوء الإدارة وانعدام الكفاءة والاضطراب في الأولويات، ومع ظهور بوادر الانفراجات يجب وينبغي ويجوز الاتجاه إلى البحث في معالجة كل الحاصل، وهي هنا تشكل الحالات الاستباقية التي توقف كل ذلك أولاً، ومن ثم يتم الاتجاه إلى إنهائها بالحكمة الموضوعية والعلاج العلمي الذي يشخص المشكلات، ويطرح الحلول، ويعمل على تنفيذها.

أكد السيد رئيس الجمهورية الدكتور بشار الأسد إنهاء استعمال كلمة يجوز، لأنها كلمة تسمح للفساد بالاستمرار، ودعا إلى مرحلة جديدة تشهد نقطة تحول، تعلو فيها سياسة الدولة على السلطات الثلاث، لأنها تمتلك رؤى ملزمة للجميع، لكونها ترى الخلل، وتوجه لإصلاحه، بكونها حامل السلطة الوطنية التي ترسم انطلاقات واضحة موضوعية المعالم، يشهد عليها تاريخ الحاضر بأنه لن يكون كما قبله، يجمع عليه الجميع من مواطنين واقتصاديين ومديرين وساسة، حيث يؤسسون إلى مرحلة جديدة عنوانها وحدة وطنية تحقق تقدماً محسوساً وملموساً في كل المجالات، والتي يعتبر أهمها الإنسان وبناؤه الفكري، هذه التي تعزز الصيغة الملحمية، وتلغي المشاهد الضبابية التي حولت المجتمع بسواده إلى باطنية سياسية، أي يظهر ما لا يبطن، وبها تتخلص من عمليات تخدير الواقع والمكابرة على الثبات في المكان عبر منطق يجوز من أجل الاستمرار القابلة دائماً للتأويل، فوطننا يمتلك شعباً عظيماً، وهو مصدر قوته ومنعته وخلقه من جديد وتخلقه، لأنه يمتلك القدرة والقوة على تحويل الأحلام إلى حقائق واقعية، وهنا أستخدم يجب بما تملك من قدرات لتحوله إلى قوة اقتصادية وعسكرية، من خلال ما يتمتع به من قوة سياسية ضامنة ومؤيدة وداعمة لتحقيق النجاح الذي نطالب به، وتسريع الخطوات التي مازالت خجولة، وتشي بالاضطراب بين الحركة والسكون، فالمواطنون والوطن في صف واحد، لأن الأزمات العالمية التي دفعت بالإرهاب والعدوان للنيل من صمودهم ورفعتهم وأرادت تفريغهم من عقائدهم والمقاومة والاستبسال في الذود عن الحمى فشلت في الوصول إلى المنشود، فازداد الضغط عبر استمرار دعم الإرهاب والاعتداء المباشر وغير المباشر، حصار اقتصادي وسياسي واجتماعي، فكيف تكون الردود من أجل الاستمرار بالتحفيز بشحذ الأفكار والهمم بالمنطق الإعلامي الجامع بالتطوير الثقافي اللامع، ومع أهمية «يجب» الملزمة و«ينبغي» المحببة و«يجوز» المميعة والفاتحة لباب الاجتهاد السالب والموجب هذه التي ينطبق عليها الوجهان يكون التنبه منها والانتباه لما جرى وكان وكيف، يجب وينبغي يرسمان سبل المسير ضمن الواقع المركب كي نصنع غداً مشرقاً.

في الواقع عند كل مواطن مجموعة خاصة من الهواجس والإحباطات والقلق، وجميعها ناتجة عن مجموعة الضغوط الاقتصادية والتشريعية مع شعوره بالذنب تجاه تقصيره، أيضاً تجاه وطنه، وتضارب المعلومات والإشاعة وعدم فهمه لما له وما عليه يأخذ به للتشكيك في كل ما يحصل مما يقلقه من يجب ويعزز شكه، وشكه في «ينبغي» وتعلقه بـ«يجوز» التي تمنحه فرص التقدم والهروب، ولنعترف أن هناك توهاناً بين المعلومات الصحيحة المسؤولة والاضطرابات في تقديمها.

هل نتقدم أكثر في لغتنا الشارحة الواضحة التي تحول المواطن إلى وطني علمي حقيقي يؤمن بفاعلية الدولة التي تتناول جميع مجالات الحياة، والتي تجري على جغرافية الوطن ضمن تطورات عصرية، تعتمد الأسس والمعايير التي تحدث التجانس والتكامل بين جميع مكوناتها بعيداً عما يجذبه بالنخوة والحمية والعواطف، وهذه تنطبق على كثير من مجريات حياتنا.

د. نبيل طعمة

رحيل باحث التاريخ بعد أن عاش أجواء الدنيا كلّها

سهيل زكّار شيخ المؤرخين تعمّق بأسرار وبحث بحقائق وتواريخ موغلة في القدم

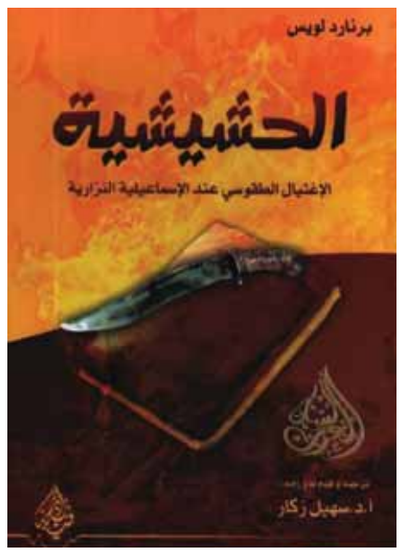

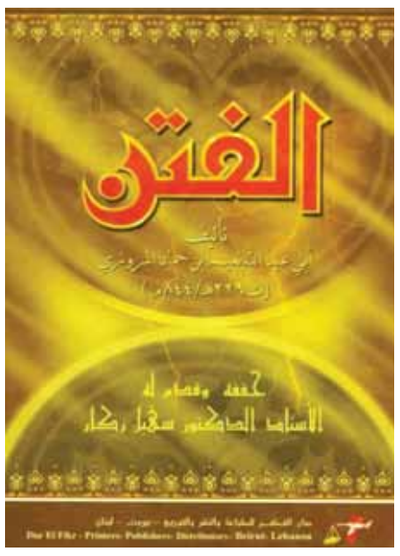

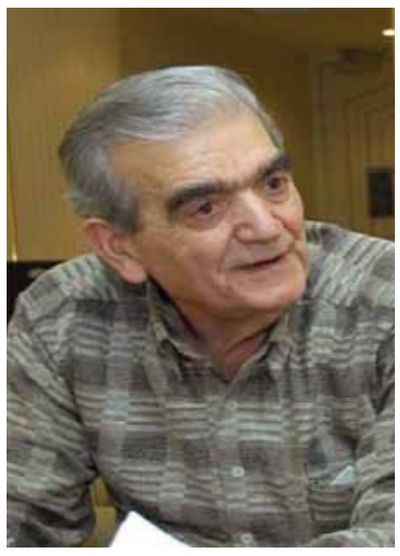

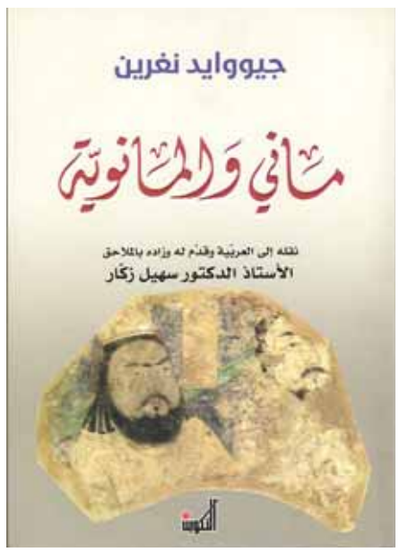

سوسن صيداوي

غزارة إنتاجية عالية مشحونة بشعلة من الطموح الوقاد، أضاءت لكل من يسعى لنور المعرفة، علماً وآفاقاً لا محدودة في الطرح، غادرنا شيخ المؤرخين السوريين والعرب على حدّ سواء تاركاً لنا نتاجاً فكرياً لأعمال تنوعت ما بين تاريخ العرب والإسلام من حيث الموضوع، وما بين التحقيق والترجمة والتأليف في الأسلوب، ومُغنياً مكتبتنا العربية بأكثر من ٣٥٠ مجلداً.

سهيل زكّار ودّع سوريته وطنه الكبير الذي ينتمي إليه حباً لا طائفة، ورحل بعد أن أثار خلافات في وجهات النظر مع المفكرين العرب، ببحوثه وأسلوبه القائم على الوثائقية والعلمية في مسيرة عطاء امتدت إلى ستة عقود، سبر خلالها أغوار وأسرار معتقداتنا الدينية، ولكنه رغم الاختلاف الفكري حاز على كل تقدير واحترام لصدق انتماءاته الفكرية والوطنية، ولذكراه التي ستبقى محفورة في الوجدان السوري نقدم لكم محطات من حواراته وإضاءات على بعض من سيرته الذاتية التي لا يمكن أن تُختصر ببضع سطور.

في اختيار المادة والموضوع

عن اختياره للمادة التي يرغب بترجمتها واختياره للموضوع، وتعامله مع دور النشر لفت راحلنا بحوار قديم بأنه يقيم دائماً مكاناً لرغبات وميول المترجم، ولديه حب وشغف كبيران بالديانات والمذاهب، حتى إنه صرح خلال حواره ذاته بأنه يفقه باللاهوت المسيحي مثل أحسن مختص في اللاهوت والتاريخ اليهودي، ومعرفته العميقة بأسرار المذاهب الإسلامية، ليتابع: «وثمة مسألة ثانية، أنت عندما تترجم كتاباً تريد ناشراً.. والناشر أحياناً يقول لك هذا العنوان لا يتماشى معي، أنا أرغب بالعناوين كذا وكذا. وأنت ككاتب لا بد لك أن تتجاوب وهذا موجود في كل أرجاء الدنيا. إضافة إلى ذلك أن العالم منذ تسعينات القرن الماضي وحتى الآن. والعالم كله، شغله الشاغل هو تاريخ الديانات والمشاكل الدينية، في أميركا يومياً تنزل أمواج من الكتب المهتمة في الدراسات الدينية.. وأنا أتابع، وهذا العصر هو عصر الديانات!.

ما أريد قوله كل الدنيا الآن مثارة بالأبحاث والعقائد الدينية. وما سمعناه من مشكلة الدنمارك (الصور المسيئة للرسول) يعتبر جزءاً من الجو العام في العالم كله، لذلك أنا كباحث في التاريخ لابد أن أعيش في أجواء الدنيا، كل هذا يجتمع مع بعضه ويؤدي إلى نشر وترجمة كتب.

إن تعاملي مع اليهودية –التي ترجمت حولها كثيراً– هو تعامل علمي؛ لكن أنا عدو للصهيونية».

في القضية الفلسطينية

إبداعات د.سهيل زكّار كانت تبثّ رسائل تساهم في خدمة أمته وتراثها الإنساني، فقد كره الصهيونية والطائفية بقوله: «أنا لستُ طائفياً»، وكانت القضية الفلسطينية قضيته الأولى، وقد قال مرة في إحدى مقابلاته عن علاقته بالقائد الراحل حافظ الأسد: «لم أجد رجلاً في فلسطين ولا في دول العرب والإسلام جعل الصراع العربي–الإسرائيلي هاجسه إلا القائد الخالد حافظ الأسد»، ووصفه بالرجل الأول بالصراع العربي–الإسرائيلي.

ضاع حلم زكّار بأن تكون مكتبته الضخمة مركز بحث عن القضية الفلسطينية بعد أن تعرضت لتخريب الإرهابيين وحُرق جزء كبير منها في الغوطة، و من شدة انتمائه لسوريته رفض محاولة استقطابه أو تجنيده وكان قراره البقاء في بلده لخدمة قضايا وطنه وأمته، ليصبح جزءاً من الذاكرة السورية.

عن تدقيق المسلسلات التاريخية

في هذا الإطار وعن نظرة الباحث سهيل زكار إلى الأعمال التلفزيونية السورية التي تقوم بإعادة سرد التاريخ درامياً، وخصوصاً أن لراحلنا تجارب في مراجعة مسلسلات منها: فارس بني مروان، وهارون الرشيد، والبحث عن صلاح الدين. قال: «أجل، أنا أسهمت في بعض الأعمال وأشرفت عليها وحاولت إلى أبعد الحدود أن أكون بدقة النص، ودقة الواقعة؛ إنما هناك كثير من المسلسلات يعطى الإشراف العلمي إلى غير المختصين، وبالتالي يكون هنالك خيال، يؤدي إلى أن تكون الأعمال غير كاملة».

عن الانتماء الطائفي والوطني

قالها بصريح العبارة: «أنا لا أحترم إنساناً في القرن الحادي والعشرين يحمل هوية الانتماء لوطن، وهو لا يزال مخلصاً في الحقيقة للطائفة وليس مخلصاً للوطن، أنا أزدري هذا النوع من الناس ولا أقيم لهم وزناً».

وعن هذه العقلية التي تسيطر على الأدمغة في شرقنا العربي تابع: «في الماضي عندما كتبت كتاب (مئة أوائل) وتلقيت رسائل تقول: لماذا تكتب عن عائشة وتكتب عن قرمط، كان لازماً ألا تكتب لا عن عائشة ولا عن قرمط.

لذلك رددت وقلت في مقدمة الطبعة الثانية: أنا أنتمي إلى قرمط وإلى عائشة، أنتمي لكل ماضي هذه الأمة، وأنا محصلة من محصلات الحضارة العربية التي صنعها السني والشيعي والمسيحي وكل أفراد هذه الأمة، وهذا الانتماء يجعلك تكون حيادياً بين الجميع.

أنا أكتب في تاريخ ولا أصدر فتاوى لا أكفر ولا أمنح شهادات إيمان.

وإنما أحاول بقدر ما يمكن أن أكون علمياً ووثائقياً، ويبدو أن العلمية والوثائقية تغضب كثيراً من الناس».

ما بين الكتاب والتلفزيون

عن تراجع القراءة والاهتمام بالكتاب وعلى الخصوص لدى الفئة العربية الشابة، ومدى خطورة هذا الأمر على الذاكرة الثقافية والحضارية للأجيال الشابة قال: «مع ذلك ثمة إقبال من الجماهير على درس التاريخ، وأنا أتمنى الإفادة من الشاشة البيضاء (التلفزيون) بأن نزيد من تقديم صورة التاريخ الصحيح، وكل عصر له وسائله للتعليم، أنت تطبع كتاباً قد يراه مئة قارئ، لكن عندما تطبعه على الشاشة البيضاء سيراه مئة مليون، ثمة صور يتمناها الإنسان أن تكون مشرقة أكثر».

في جوانب أخرى

لطالما التفّ طلاب د.زكّار حوله لاهتمامه بكل من رغب بأن يزيد من معارفه، وكان بالفعل متفاعلاً ومهتماً بنقل العلم والفائدة لغيره بشتى الطّرق، ولم يبخل حتى بتقديم أي كتاب لكل من يرغب من طلابه، على الرغم من أنها أغلى ما لديه، وخصوصاً أنه كان يدخل كأقل تقدير إلى مكتبته باليوم كتاباً جديداً وعلى مدار السّنة، وحتى إنّ نسبة قراءته لها تفوق نسبة الخمسين بالمئة، وهذا الأمر ليس بمستغرب لأنّ مكتبته الخاصّة كانت تحوي بين ٣٠ إلى ٣٥ ألف كتاب في مواضيع شتّى، وهذا ليس مستغرباً على قامة دأبها مستمر ولم ينقطع يوماً، في الجلوس خلف المكتب، يكتب ويقرأ وينقّح ويصحّح، من دون أن يكلّ أو يملّ، إذ كان يعيش في عوالمه الخاصة منكبّاً على الوريقات التي بين يديه ناسياً تماماً ما يدور من حوله.

في حياته ودراسته

وُلد د.زكّار في مدينة حماة سورية عام ١٩٣٦ منَ أسرة متوسّطةُ الحالَ، فوالده كان يعمل في أعمال تجاريّة، ولحقت به خَسائر مادية كبيرة نتيجة ما جرى في حماة أيّام الانتداب الفرنسي على سورية، مما اضطر د.زكّار لترك المدرسة والإنقطاع من أجل العمل وتأمين لقمة العيش والتّعاون مع الأسرة.

لكن شغفه و عشقه للمعرفة لم يخب رغم قساوة الأيام حيث بقي ناهلاً في قراءاته لكل ما كان يأتي بين يديه من كتب مختلفة واطلاعات متنوعة تذهب كلها في موضوعها نحو التاريخ الذي يعشقه، حتى نال الشّهادة الإعداديّة في عام ١٩٥٢ .

بعد ذلك عمل معلماً وكيلاً في ريف حماة. وعندما فكر في متابعة الدراسة والتحصيل العلمي لنيل الشّهادة الثّانويّة، لم تكن الأمور سهلة، ففي عام ١٩٥٦ كانَ راحلنا قد وصل بعمره إلى سنّ أداء خدمة العلم وأثناء ذلك كان العدوان الثلاثي علىَ مصرَ ، لكن هذا الأمر لم يمنعه من السعي الجاد للحصول على الشّهادة الثّانويّة ، إذ كان ينتقل من الشّيخ مسكين إلى دمشقَ ليلاً للوصول صباحاً من أجل تأدية الامتحانات والعودة. وكانت النتيجة بأنّه نجحَ وبتفوّق وأخذ بمقرر التّاريخ أكثر من ١٩٠ درجة من ٢٠٠.

ما بين الجامعة و التدريس

تقدّم للتّسجيل في الجامعة وبالطبع مجموع علاماته خوله للإلتحاق بأيّ كلية موجودة آنئذ، وبما أنّه كان مفطوراً على حبّ التّاريخ دخل هذا القسم، ومع أنّه لم يكن مداوماً على المحاضرات في الجامعة لكنّه اجتاز الامتحانات كلها بنجاح وكان المتخرّج الأوّل في الجامعة، بعد التخرج عام ١٩٦٣ تقدّم لمسابقة المدرّسين في وزارة التّربية ولمسابقة أخرى ليكون مُعيداً في كلّيّة الآداب، نجح في مُسابقة المدرّسين وكان الأوّل على سورية. وعُين في حماة، وحينها قال له مديرُ تربية حماة: (لأنّك ستترك التّدريسَ وتذهب إلى الجامعة لن أعيّنك في المدينة)، وبالفعل تمّ تعيينه في السلمية وهناك درّس ثلاثة أشهر، بعد ذلك كانت قد صدرت نتائج القبول في المعيدين ونجح، وقرّرت الجامعة إلحاقه بها كمعيد مع إتّخاذ قرار بإيفاده إلى إنكلترا وفي هذه الفترة أقدم على تحقيق كتابين مهمين هما: طبقات خليفة بن خياط، وتاريخ خليفة بن خيّاط المتوفّى ٢٤٠ هـ وصدرا له فيما بعد عن وزارة الثقافة في دمشق.

في لندن

في أواخر عام ١٩٦٤سافر إلى لندن، وصلها وهو لا يعرف اللّغة الإنكليزيّة كانت معلوماته متدنّية في الإنكليزيّة ولم يكن يعرف أحداً هناك على الإطلاق ومرّت أيّام صعبة عليه، وأخيراً وجد غرفة عند الجيران وبالوقت نفسه انتسب إلى مدرسة «ديفيز سكول» ليتعلّم الإنكليزيّة وذهب إلى الجامعة والتقى رئيسَ قسمِ التّاريخ المستشرق برنارد لويس. قال له: عليكَ أنْ تتعلّمَ الإنكليزيّة وعاد من الجامعة من أجل اللّغة الإنكليزيّة، ثمّ بدأت رحلة العمل الدؤوب، أصبح يداوم صباحاً في المدرسة الخاصّة وفي المساء يذهب إلى مدرسة تابعة للبلديّة، وخلال شهر أصبح يقرأ ويتكلّم بالإنكليزيّة، وكان قد قرّر أن يحفظ «معجم إنكليزي–إنكليزي» واستفاد من ذلك كثيراً، كما استفاد من قراءة ترجمة القرآن الكريم إلى اللّغة الإنكليزيّة، بعد هذا الشّهر ذهب إلى الجامعة والتقى ثانيةً «لويس» الذي اندهش لذلك وطلب منه أن يخطو الخطوة الثّانية.

دراسته وتدريسه

كان موضوع الماجستير حول إمارة حلب في القرن الحادي عشر للميلاد، أي الموافق للقرن الخامس الهجري، وأثناء المتابعة للدراسة بدأ رحلة قادته إلى تركيا وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا للحصول على المخطوطات ثمّ تابع الدكتوراه، درّس في لبنان والمغرب لمدة ٣ سنوات ثم عاد لبلده سورية واستقر فيها مدرساً ومؤلفاً ومحاضراً وباحثاً.

مشروع موسوعة تاريخ الحروب الصليبية

في عام ١٩٩١م وافق على مشروع ضخم وهو إخراج كتاب كبير في تاريخ الحروب الصليبية سماه «الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية». ومنذ ذلك الحين وهو يعمل على هذه الموسوعة بالتعاون مع طلابه، ويذكر عنه أنه سيكون أوسع وأشمل كتاب من نوعه في أي لغة في العالم إذ سيضم ٤٥ ألف صفحة وقد تأتي هذه الصفحات ما بين ٩٠ إلى ٩٥ مجلداً.

من مؤلفاته

الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (٥٠ مجلداً)
مدخل إلى تاريخ الحرب الصليبية
ماني والمانوية
مختارات من كتابات المؤرخين العرب
إمارة حلب في القرن الحادي عشر الميلادي
الإعلام والتبيين في طروح الفرنج الملاعين، تحقيق
الانحياز، ترجمة
أخبار القرامطة، تحقيق
تاريخ العرب والإسلام
تاريخ يهود الخزر
الحشيشية: الاغتيال الطقوسي عند الإسماعيلية النزارية
طبقات خليفة بن خياط.

محيي الدين الدرويش من الكتاتيب إلى الإعلام والتصنيف

أنس تللو

رجلٌ فصيحٌ بليغ؛ دعتهُ المنابرُ فحطَّ في رحالها، ونادته القوافي فصالَ وجالَ في أرجائها، ورحبت به الصحافةُ فأبدعَ على صفحاتها وأغناها.

وما ذاك لشهادة عالية يحملها فهو بمفهوم اليوم أمّي، ولا هو لجّاه يطير به فهو ابنُ رجلٍ بسيط، ولا هو لمَال تحمله حناياه فهو رجل متوسط الحال... وإنما لعبقرية نبغت، ونجابة وذكاء بهرا من يراه.

رجلٌ لم يدخُلِ المدرسةَ ولم يعرف الجامعة؛ وإنما رعته (كتاتيبُ) بلدتَه حمص التي ولد فيها عام ١٩٠٨، وقد أتمَّ مناهج تلك الكتاتيب وظهرت مواهبُهُ قبل أن يتجاوز العاشرة من العمر.

إنه محيي الدين الدقاق، تلك العائلة الحمصية المعروفة والمغرقة في القدم، وقد كان والده مصطفى منتسباً إلى الطريقة المولوية فأطلق عليه لقب (الدرويش)؛ ثم غلب اللقبُ الجديد على الكنية القديمة، وكان ابنه محيي الدين الدرويش.

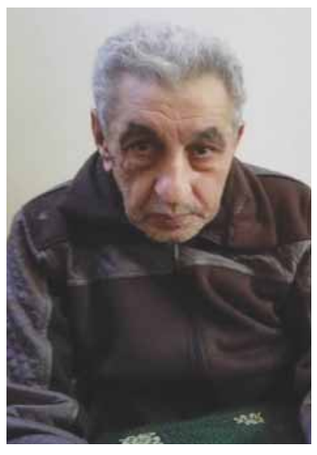

عتاةَ باريسِ ما فيكم أخو رشدٍ
أتذكرونَ الذي أنزلتُمُ فينا
وحين تم الاستقلال غنى الأستاذ درويش آنذاك:
الحمدُ للهِ قد تمَّت أمانينا

وكان الاعتبار السائد آنذاك هو الاعتماد على الكفاءات الشخصية وليس التعويل على الشهادات العلمية، ومن هذا الباب تمكن محيي الدين الدرويش من أن يجتاز امتحاناً مسلكياً بتفوق، فالتحق بمدرسة دار المعلمين العليا، ثم دعته وزارة المعارف عام ١٩٣٢ ليعمل مدرسا للأدب العربي في مدارس حمص.

توجه محيي الدين الدرويش إلى الصحافة فرحبت به أيما ترحيب... فقد راسل صحف الأيام والقبس وألف باء ونشر فيها مقالات بليغة رائعة، ثم طغت شهرته في عصره فترأس تحرير صحيفة (التوفيق) وصحيفة (الضحى) وصحيفة (الفجر).

في هذه الصحف دبّج يراعُهُ أعظم المقالات في اللغة والسياسة والأدب.

ويؤثَرُ له أنه قد حارب الانتداب الفرنسي على سورية في القرن الماضي بمقالات وقصائد كانت كالصواعق تقضّ مضجعَ الفرنسيين... حتى إن المندوب الفرنسي أرسل له تهديداً ليكف عن بلواه فرد عليه بقصيدة مطلعها:

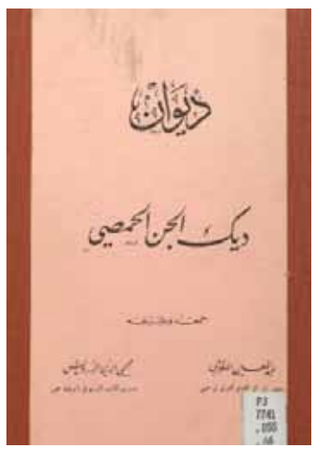

وأسفرَ الليلُ طلقاً في نوادينا
وفي عام ١٩٦٣ م أصدر مجلة (الخمائل الأدبية) التي كانت متنفس الأدباء والشعراء داخل القطر السوري وخارجه. وقد كان عضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

كذلك فقد انصرف الشاعر محيي الدين درويش إلى التأليف فأغنى المكتبة العربية بمؤلفات غنية، منها: إعراب القرآن وبيانه – تحقيق (ديوان ديك الجن).

ولا يفوتني أن أشير إلى أن محيي الدين الدرويش يعتبر صنوَ أبي نواس في عشقه لبنت العنقود، ومن بديع قوله فيها:

بنفسي عشياتٌ لنا وأصائلُ
سواحرُ، يغرينَ النفوسَ، حوافلُ
ومعهدُ أُنسٍ ينشرُ اللهوَ فيئُهُ
له الحسنُ ثوبٌ، والنعيمُ غلائلُ
أحنُّ إلى تلك العشايا ويستبي
فؤَادي جمالٌ أطلعتْهُ الأصائلُ
بها تبرزُ اللذاتُ فاتنةَ الرؤى
فأنهبُ منها كلَّ ما أنا آملُ
لذائذُ فيها للحليمِ غوايةٌ
على أنها للهائمينَ حلائلُ

توفي الشاعر محيي الدين الدرويش عام ١٩٨٢.

فأي عبقرية تلك التي شقت طريقها فأبدعت في الشعر والمقالة والتعليم والأدب.